مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
ISSN: 2709-0302 (online)
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2617-5908 (print)

مقومات الحضارة الفكرية في سورة الملك(*)

الباحثة/ إقبال بنت محمد عبدالله باصمد
أستاذ الثقافة المساعد بكلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية - السعودية
embasamad@uqu.edu.sa

*) تاريخ تسليم البحث 2/12/2023 تاريخ قبوله للنشر 15/1/2024
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

مقومات الحضارة الفكرية في سورة الملك

الباحثة/ إقبال بنت محمد عبدالله باصمد
أستاذ الثقافة المساعد بكلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية - السعودية

الملخص

احتفت سورة الملك بمقومات الحضارة الفكرية عقيدة ومنهجاً وأخلاقاً؛ لإقامة حضارة شاملة وممتدة، وقد تناول البحث تعريف الحضارة الفكرية، واستنباط أهم مقوماتها الواردة في السورة، وبيان أهميتها في ضبط الفكر، وأثرها في البناء الحضاري، وربط الآيات القرآنية بدلالاتها الحضارية، وقُسّم البحث إلى ثلاث مقومات رئيسة: مقومات فكرية إيمانية، ومقومات فكرية معرفية، ومقومات فكرية أخلاقية، وتوصلت إلى مجموعة من النتائج أبرزها: عناية القرآن بالفكر فهو المرحلة الأولى في سلم الحضارة العالمية، فلا حضارة بلا فكر قويم، وأهمية الاعتقاد الصحيح في تكوين الفكر السليم، وبناء قاعدة حضارية قوية وممتدة، وضرورة التفاعل الإيجابي بين الحواس والعقل للانتفاع بالعلم والعمل به في تحقيق الرقي الفكري والمادي، كما أن القيم الأخلاقية ضرورة فكرية وقواعد مثلى في ضبط الفكر وتوجيهه.

الكلمات المفتاحية: مقومات، الحضارة، الفكر، سورة الملك.

"Ingredients of Intellectual Civilization in Surat Al-Mulk"

Eqbal Mohammad Basamad
Assistant Professor of Culture
Department of Da'wa 'Islamic Call' and Islamic Culture
Umm Al-Qura University-Makkah

Abstract

Sūrat Al-Mulk deals with the components of intellectual civilization in doctrine, approach, and morals to establish a comprehensive and extended civilization. The current research deals with the definition of intellectual civilization and deducing the most prominent components of intellectual civilization contained in the Surah, explaining its importance in controlling thought and its impact on building civilization, and linking Quranic verses to their cultural connotations. The research was divided into three main components: Intellectual faith-based components, cognitive intellectual components, and moral intellectual components, and reached several findings, the most prominent of which are: the Quran's attention to thought; As it is the first stage in the ladder of global civilization; as there is no civilization without straight thought, the importance of correct belief in forming correct thought, building a strong and extended civilizational base, the necessity of positive interaction between the senses and the mind to benefit from and work according to knowledge in achieving intellectual and material advancement, and moral values are an intellectual necessity and ideal rules for controlling and directing thought.

Keywords: Components, Civilization, Thought, Sūrat Al-Mulk**.**

المقدمة:

الحضارة مطلب إنساني له أهميته في التاريخ البشري، ولا تزال المجتمعات تسعى لتحقيقه وارتقاء أعلى درجاته، وكل ما وصل إليه الإنسان من تقدم ورقي في الإنتاج المعنوي والمادي يرتكز بصورة مباشرة على الفكر، وأي حضارة لا تُبنى على فكر قويم ومنهج واضح فهي إلى الزوال، والإسلام دين الحضارة العالمية، والرقي الإنساني الشامل، بدعوته إلى العلم والتقدم، نقل المجتمع البشري من الجاهلية إلى العلم، ومن الظلمات إلى النور، وأقام دعائم الحضارة الفريدة على أسس قوية متينة، وأصول عظيمة لها بالغ الأثر في ديمومة الحضارة الإسلامية متميزة وعالمية، ولما كان الفكر هو أساس الحضارة والسعادة والرفاه، وهو القوة المحرّكة للإنسان قولاً وفعلاً؛ اعتنى القرآن به بناء وإصلاحًا وإرشادًا، ضبطًا وتوجيهًا للعمليات الفكرية، فكانت أُولى الكلمات الإلهية قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١]، وأول موضوعات الرسالة الإلهية التوحيد، وهو استقامة الفكر وإرساء أركانه بالدّلالات الواضحة والشواهد الفطرية والعقلية، ولئن كانت المدنية هي نتاج الحضارة، فإن الحضارة تنهض على الفكر، والمنهج الفكري هو القوة الفاعلة والمؤثرة في التطور والإبداع المادي والمعنوي، وبقاء الحضارة وامتداد أثرها مرهون باستقامة الفكر بمقومات تقيم اعوجاجه وتضبط ميدانه، فكان البحث بعنوان: مقومات الحضارة الفكرية في سورة الملك، وقد احتفت هذه السورة بالفكر، وهو من صور تكريم الله للإنسان، والدافع إلى الإبداع والتقدم وتحقيق العمران.

مشكلة البحث:

الحضارة من القضايا العالمية المعاصرة، ولا غنى للحضارة عن الفكر، الذي له أثره على صلاح أنظمة المجتمع، مما يتعين الاهتمام بالقضايا الفكرية وعياً واستقامة، وتوجيهاً وضبطاً، فالحضارة الفكرية هي المرحلة الأولى من مراحل البناء الحضاري، فإن استقام الفكر نهضت الحضارة.

تساؤلات البحث:

١- ما المقصود بالحضارة الفكرية؟

٢- ما أبرز المقومات الإيمانية والمعرفية والأخلاقية للحضارة الفكرية؟

٣- ما الدلالات القرآنية على مقومات الحضارة الفكرية في سورة الملك؟

أهمية البحث:

١- مكانة الفكر وتأثيره في قوة البناء الحضاري وفاعليته.

٢- احتفاء القرآن الكريم بالفكر وتقويمه وإرشاده لإقامة حضارة ممتدة وشاملة.

٣- العناية بالفكر وعياً وتوجيها من الموضوعات المعاصرة، وموضع اهتمام المجتمعات الإسلامية.

أهداف البحث:

١- بيان أهم المقومات الحضارية الفكرية في سورة الملك.

٢-ربط الآيات القرآنية في سورة الملك بدلالاتها الحضارية الفكرية للرقي المعرفي.
٣-إظهار أهمية ضبط الفكر وتوجيهه، وأثره في البناء الحضاري.

حدود البحث:

استنباط أهم المقومات الحضارية الفكرية من سورة الملك.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة البحث استخدام المناهج الآتية:

- المنهج الاستقرائي: تتبع الآيات القرآنية في سورة الملك الدالة على مقومات الحضارة الفكرية.
- المنهج الاستنباطي: قراءة الآيات وتفسيرها واستنباط المعاني والدلالات ذات الصلة بالمقومات الفكرية.
- المنهج الوصفي التحليلي: وصف المقومات الحضارية الفكرية وتحليلها في ضوء الآيات القرآنية.

الدراسات السابقة:

تنوعت الدراسات التي تناولت قضية الحضارة الإسلامية بمفهومها الشامل في القرآن الكريم، ولم أقف على دراسة تناولت الحضارة الفكرية في سورة الملك، ومن تلك الدراسات:

١-مقومات بناء الحضارة في ضوء سورة النمل، عبد الفتاح محمود إدريس، ٢٠٢١م، وتناولت الدراسة المقومات الفكرية والسلوكية والمادية في حدود سورة النمل، بينما الدراسة الحالية تختلف عنها من حيث دراسة المقومات الحضارية الفكرية، وكذلك حدود البحث في سورة الملك.

٢-من القيم الحضارية دراسة في ضوء القرآن الكريم، حسن بن ناجع العجمي، ٢٠٢٢م، وقد تناولت الدراسة أبرز القيم الحضارية في القرآن الكريم، مثل العدل والحرية والتنافس والإحسان والتعاون والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والانتماء الوطني. بينما الدراسة الحالية تختلف عنها من حيث الموضوع بدراسة مقومات الحضارة الفكرية إيمانيا ومعرفيا وأخلاقيا، وكذلك حدود البحث في سورة الملك.

خطة البحث:

وقد اشتملت على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، ومراجع.

المقدمة: تتضمن أهمية البحث، وأهداف البحث، وحدود البحث، ومشكلة البحث، وتساؤلات الدراسة، ومنهج البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

التمهيد: وفيه: التعريف بسورة الملك، وبيان مفهوم الحضارة الفكرية.

المبحث الأول: مقومات فكرية إيمانية

المطلب الأول: صحة المعتقد والنظرة الكلية للوجود.

المطلب الثاني: الوضوح والوسطية في المنهج الاعتقادي.

المبحث الثاني: مقومات فكرية معرفية

المطلب الأول: اتباع الوحي أصل المعرفة

المطلب الثاني: الكون موضوع المعرفة.

المبحث الثالث: مقومات فكرية أخلاقية

المطلب الأول: قيمة الحق وإقامة العبودية

المطلب الثاني: قيمة العدل وتحقيق الأمن

المطلب الثالث: قيمة العمل بالعلم

والله أسأل أن يُيسّر لي بفضله وعونه وإحسانه...

التمهيد:

أولاً: التعريف بسورة الملك وفضلها:

سورة الملك مكيّة، وآياتها ثلاثون آية، وورد في أسمائها: الملك، المانعة، المنجية، المجادلة، الواقية(١)، كما سميت بأول جملة بُدئت بها، وجاء في فضل قراءتها حصول المغفرة والشفاعة، فعن أبي هريرةﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي سورة تبارك الذي بيده الملك)(٢). وعن عبد الله بن مسعودﷺ قال: (من قرأ قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] كل ليلة منعه الله بها من عذاب القبر، وكنا في عهد رسول الله ﷺ نسميها المانعة، وإنها في كتاب الله سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب)(٣).

مقاصد سورة الملك:

تضمنت سورة الملك أصول الإسلام الكبرى والنظرة الكلية للوجود والكون والحياة، وأصول المعرفة في الوحي والآفاق، لتوجيه الفكر وضبط ميادين عمله بتفاعل الحواس مع العقل وصولاً إلى العلم النافع، والاستفادة من التفاعل الإيجابي في السعي والعمل في الأرض على هدى وبصيرة، لإقامة العبودية، وتحقيق العمران والرقي الإنساني، وقد جاءت موضوعات السورة على النحو الآتي:

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق وتخريج: شعيب الأرنؤوط، بيروت-لبنان، مؤسسة الرسالة، ط ١/١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م. (ص١٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الملك، (ح رقم ٢٨٩١)، (ج٥/ص١٧)، قال الترمذي: هذا حديث حسن، واللفظ له، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في عد الآي، (ح رقم ١٣٩٥)، (ج٢/ص٣١٤)، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب ثواب القرآن، (ح رقم ٣٧٨٢)، (ج٤/ص٢٤١) بنحوه. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (ص١٩٢).

(٣) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب الفضل في قراءة تبارك الذي بيده الملك، (ح رقم ١٠٤٧٩)، (ج٩/ص٢٦٧). حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (ص١٩٢).

- التعريف بعظمة الخالق، وإثبات تفرده بالملك والخلق والإتقان والتسوية والإحسان، ودلالة وجوده وكمال علمه وإحاطته، وتفرّده في الألوهية.
- إثبات مسألة الخلق والموت والبعث بالإخبار أنه أقام نظام الموت والحياة لتظهر في الحالين أعمال العباد في ميادين السبق إلى أحسن الأعمال والمجازاة عليها.
- التذكير بمنة خلق العالم الأرضي، ودقة نظامه، وملاءمته لحياة الناس، وفيها سعيهم ومنها رزقهم.
- تنبيه الخلق بقدرة الله على إفساد ذلك نظام الحياة، فيصبح الناس في كرب وعناء ليتذكروا قيمة النعم بتصور زوالها.
- توبيخ المشركين على شركهم وبيان فساد آلهتهم، وآيسهم من التوكل على نصرتها أو على أن ترزقهم رزقا[١].
- ذكرت السورة أدوات التفكير والعلم والطلب، لإظهار نعم الله على الإنسان وتكريم الله له وتميزه عن غيره، وأهميتها في حصول المعرفة والإدراك وما يترتب عليها من الجزاء.
- التحذير من أسباب الضلال والانحراف الفكري كالتكذيب واتباع الهوى والشيطان، والإعراض عما أنزل الله.

ثانياً: مفهوم الحضارة الفكرية:

الحضارة لغة: من حضر يحضر حضوراً وحِضارة بالكسر والفتح ومعانيها تدور حول: الحضور والشهادة نقيض المغيب، والحاضر المقيم في المدن والقرى، والبادي: المقيم بالبادية، كما يُقال للمقيم على الماء: حاضر، والحضر خلاف البدو، والحاضرة خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[٢].

والحضارة بمفهوم أوسع في المعاجم اللغوية: التمدن، وهي مرحلة التطور الإنساني والرقي العلمي، والفني، والأدبي، والاجتماعي[٣].

الحضارة في الاصطلاح: وردت فيها تعريفات كثيرة ومتقاربة كلها تدل على التقدم والرقي، ومن بين هذه التعريفات: عرفها ابن خلدون من الجانب المادي، له صلة بالمعنى اللغوي: طور الحضارة يتبع طور البداوة، وهي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه، وهي ضرورة تبعية[٤]. كما عُرفت الحضارة: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي"[٥].

---

(١) ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، (ج٢٩/ص٨).

(٢) ينظر: ابن منظور، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، لسان العرب، (ج٤/ص١٤٨).

(٣) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (ص١٨١).

(٤) ينظر: ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، (ص١٦٠).

(٥) وِل ديورانت، ويليام جيمس، قصة الحضارة، (ج١/ص٣).

والحضارة بمفهومها الواسع المعنوي والمادي: هي الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافية، والفكرية، ومجموع الحياة في أنماطها المادية والمعنوية، ولئن امتاز الإسلام بأنه دين الحضارة الإنسانية، فإن الحضارة الإسلامية استمدت كل مقوماتها، وعناصر وجودها، وأسباب نمائها وازدهارها، من الإسلام ذاته، فهو دين عبادة، ودين معاملة(١).

ودلالة الحضارة بمعانيها اللغوية في القرآن الكريم: الحضور والشهادة بجميع معانيها التي ينتج عنها نموذج إنساني يستبطن قيم التوحيد والربوبية، وينطلق منها كبعد غيبي يتعلق بوحدانية خالق الكون وسننه ومدبّره، ورسالة الإنسان هي تحقيق الخلافة في تعمير الأرض وتحسينها وتيسير معاش الناس فيها، والتمكين عليها والانتفاع بخيراتها وحسن التعامل مع المسخرات في الكون وحفظها، وإقامة علاقة مع سائر بني الإنسان أساسها الأخوة والألفة وحب الخير والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة(٢).

والفكر في اللغة: إعمال الخاطر في الشيء، والتفكّر: اسم التفكير بمعنى التأمل، ورجل فكّير كثير التفكّر (٣)، وهو "إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول"(٤).

والفكر في الاصطلاح: تدور معانيه حول النظر وإعمال العقل واستنباط المعاني، فهو قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر: جريان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك مختص بالإنسان دون الحيوان، والفكرة فكرتان: فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة، فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفى، والتي تتعلق بالطلب والإرادة هي فكرة التميز بين النافع والضار، وما يترتب عليها من سلوك طريق ما ينفع واجتناب ما يضر(٥).

والمقومات جمع مقوّم وهي اسم فاعل من قوّم، وهو ما يعطي قيمة لعمل أو شخص أو مجموعة، فهو كل ما يتألف من عناصر أساسية تُسهم في قيامه ووجوده وفاعليته(٦).

ومما سبق فإن مفهوم مقومات الحضارة الفكرية: هي العناصر التي يرتكز عليها النشاط العقلي للوصول إلى الرقي في الإنتاج الفكري علميا وثقافياً وأخلاقياً، في صورة مستقيمة ومعتدلة، إنسانية وعالمية، دينية ودنيوية، ومؤثرة في الإنتاج المادي وفق التصور الإسلامي الصحيح عن اللهﷻ والكون والحياة والإنسان.

(١) ينظر: السايح، أحمد عبدالرحيم، الحضارة الإسلامية، (ص٧٠).

(٢) ينظر: عارف، نصر محمد، الحضارة– الثقافة– المدنية دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، (ص٥٩).

(٣) ينظر: ابن منظور، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، لسان العرب، (ج١١/ص٢١١).

(٤) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (ص٦٩٨).

(٥) ينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (ج٤/ص٢١٢).

(٦) ينظر: مختار، أحمد مختار عبدالحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (ج٣/ص١٨٧٩).

المبحث الأول: مقومات فكرية إيمانية

إن الإيمان بجملة من الحقائق الواردة في الكتاب والسنة تعد القاعدة المركزية للانطلاق الفكري، وحصانة منيعة له في فضاء المعرفة، والعقيدة تعد القضية الأولى في القضايا الإنسانية الفكرية، والعقيدة الإسلامية تمنح الفكر تصوراً صحيحاً معتدلاً عن الوجود والحياة والغاية والكون والخالق والرسالة والحقائق الغيبية بعيداً عن الأوهام والخرافات، كما أن المعاني اللغوية الواردة في العقيدة تدور حول البناء، الميثاق، العهد المؤكد، القوة، الوثوق، الثبات(١)، للدلالة على أن العقيدة سياج منيع قوي يحفظ الفكر فلا يكون عُرضة للانحراف والضلال.

المطلب الأول: صحة المعتقد والنظرة الكلية للوجود

الاعتقاد الصحيح للوجود والكون والحياة والممات والمعاد أساس الفكر واللبنة الأولى في استقامته واعتداله، وفكر بلا معتقد صحيح كبناء بلا أساس لا تقوم له قائمة ولا يثبت له مقام، وهو في حقه أمان فكري يجيب على تساؤلاته بالبراهين والحجج الصحيحة، ويحرره من طغيان العبودية المادية، وقد اعتنى القرآن الكريم بقضية الإيمان وصحة المعتقد، تكاد لا تخلو سورة من سور القرآن إلا وتناولت قضية الإيمان بأساليب ودلائل متنوعة، كلها تدعو إلى إعمال الفكر والإدراك والنظر والقياس وصولاً إلى تصحيح المعتقد وتقويمه، وقد تناولت سورة الملك جملة من المسائل العقدية التي تقيم الفكر على أصول وركائز إيمانية صحيحة، وهي ضرورة فطرية وعقلية ودينية، تستند على دلالات عقلية كالاستدلال بالأثر على المؤثر، وبراهين يقينية متسقة مع الأدلة والحجج الصحيحة؛ لاستقامة الفكر وصلاح المعتقد، ومنها:

- المسألة الأولى:

إثبات وجود الله ﷻ وإفراده في ربوبيته، وهي أصل القضايا الفكرية والمسائل العقدية، التي تستوجب بدلالة التلازم إفراد الله في الألوهية، وقد تناولت السورة دليل الخلق والإيجاد وإثبات تفرّده في الخلق والإنشاء من العدم للإيمان بوجود الخالق العظيم، وهو من يستحق أن يُفرد بالعبادة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ [الملك: ٢٣]، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، كما أشارت الآيات إلى دليل الإحكام والإتقان للدلالة على وجوده وعظمته وربوبيته، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك: ٣]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] وتذليل الأرض وتسخيرها للناس قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥]، وإحكام خلق الطير

(١) ينظر: ابن منظور، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، لسان العرب، (ج١٠/ص٢٢١).

وإحسان صنعته قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩]، ودليل إثبات الكمال المطلق لله في أسمائه وصفاته جل في علاه وقد افتتحت السورة ببيان الكمال المنزّه عن النقصان قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك: ١]، ثم وردت أسماء الله وصفاته في خواتم الآيات فهو العزيز الغفور، الرحمن البصير اللطيف الخبير الذي أحاط كل شيء علما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٣ – ١٤] كما عددت الآيات صوراً من قدرته وحده لا شريك له بخطاب الاستفهام الذي يفيد النفي كإثبات النصرة والرزق والإنعام ومالا يقدر عليه أحد إلا الله قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: ٢٠]، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١]، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك: ٣٠]، والمتأمل في عرض القرآن للأدلة العقلية على الإيمان بالله تسير في خطين متوازيين: خط مثبت الكمال لله كالخلق والنفع والتأثير، وخط ناقض للشرك كعجز الشركاء عن الخلق والنفع والتأثير(١)، وهي منهجية علمية لإثارة الفكر، وحث العقل على التفكّر المجرّد عن الهوى في أصل الوجود ومكوناته، والنظام الذي يحكم العلاقات الكونية في نسق منتظم، فتتجلّى عظمة الخالق بإعمال العقل، فإن استقام الفكر اعتقادا في أصل الوجود وأعظم الأصول وهو الإيمان بالله؛ فإن ما وراء ذلك من الأصول سيُبنى على قاعدة صحيحة.

– المسألة الثانية:

إثبات الغاية من الوجود والحياة والممات والمعاد، مسألة متفرعة عن إثبات وجود الله وإفراده في أفعاله، وهي من الأسئلة الكبرى التي شغلت التفكير الإنساني حول وجوده والغاية منه، فإن الله ﷻ خلق الوجود من العدم في أحسن خلقة، وكمال تسوية مع هداية تتناسب مع كل مخلوق لأداء وظيفته في تناسق وانتظام محكم ومعجز، مما ينفي فكرة العبثية ويثبت الحكمة والغاية من الوجود، ولاشك أن مسألة الحياة والممات قضية فكرية أولية تستلزم وضوحاً وبياناً حقاً لا مرية فيه، حتى يعرف الإنسان مبدأ خلقه ونهايته، والغاية من وجوده، وقد تناولت السورة هذه المسألة بمزيد إيضاح وبيان، فإن الله يخلق ما يشاء فينفخ فيه الروح ويحييه لأجل مسمى، ثم توافيه المنية، وبين حياته ومماته يعمل لغاية خُلق لأجلها، إفراد الله بالعبادة ومعرفة عظمته والتقرب إليه واتباع ما أنزل الله على رسله فيجازي المحسن والمسيء، فتكون الحياة دار إيمان وتصديق، وعمل وابتلاء قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، فذكرت الآية النشأة من العدم ثم الممات، وفي ذكرهما–الموت والحياة– لبيان ما يترتب عليهما من الآثار التي أعظمها العمل في الحياة والجزاء عليه بعد

(١) ينظر: عبيدات، عبدالكريم توقان، الدلالة العقلية في القرآن الكريم، (ص٢٦٧).

الموت، ومعنى الابتلاء مشعر بترتب أثر له وهو الجزاء على العمل للتذكير بحكمة خلق الإنسان.(١) وفي قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الملك: ٢٤] إثبات للمعاد يوم القيامة، فإن البعث وما يتبعه من أحداث تجعل الفكر يسير في طريق متسلسل متناسق من بدء الخلق والغاية، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، ثم مماته ثم بعثه؛ لتكتمل الغاية وتنتفي العبثية والفوضوية في الوجود، فيُحاسب على اعتقاده وقوله وعمله، وعلى ذلك ذكرت السورة عاقبة الفريقين يوم القيامة للتأكيد على مسألة الإيمان باليوم الآخر ووقوع الحساب والجزاء قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦﴾ [الملك: ٦] قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك: ١٢].

إن صحة العقيدة والإجابات اليقينية عن الأسئلة الكبرى للوجود، تقي الفكر من الحيرة والقلق والاضطراب النفسي، وتمنحه الأمن والطمأنينة، الأمر الذي يدفعه لبناء الحضارة وزيادة الإنتاج النافع فكريا ومادياً؛ لأن مناخ الإبداع الفكري هو الأمن والاستقرار، ولا أمن بلا عقيدة صحيحة ثابتة.

المطلب الثاني: الوضوح والوسطية في المنهج الاعتقادي

إن سمة الوضوح والوسطية من خصائص العقيدة الإسلامية، وركيزة مهمة في البناء الفكري السليم، فالفكر الذي يصل إلى نتائج صحيحة إيجابية؛ فإنه يبدأ بمقدمات واضحة خالية من الغموض والتعارض والتناقض، فالعقيدة الإسلامية ترسم للفكر مساره، وتصبغ هويته، وتحدد أهدافه، وهي واضحة في أصولها ومصادرها وغاياتها ودلالاتها، فمسائل العقيدة مصدرها الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليخرج الناس من عبودية الشرك وظلماته إلى نور الهداية والأمان والنجاة، ولهذا فإن من رحمة الله وعدله وكمال لطفه أرسل الرسل وأنزل الكتب البيّنة للاهتداء، وإرشاد الخلق إلى القضايا الإيمانية في عالم الغيب والشهادة، وبيان المعتقد الصحيح بالأدلة والبراهين والحجج النقلية والعقلية والفطرية، التي لا يسع للعقل السليم أن ينكرها، ولا الفطرة السوية أن تجحدها، موافقة للفطرة والعقل السليم، ومؤيدة بالدليل، فلا غلو ولا إفراط ولا تفريط، ولما كان الوحي هو المصدر اليقيني لبيان العقيدة، فإن القرآن الكريم اعتنى بمسألة إثبات صدق الرسل وإنزال الكتب، وقد أشارت السورة إلى ذلك في معرض بيان مآل المشركين واستحقاقهم العذاب يوم القيامة، وتوبيخ خزنة النار لهم بأسلوب الاستفهام على سبيل التقريع وزيادة الحسرة بسبب تكذيبهم الرسل وإنكار دعوتهم وإعراضهم عما أنزل الله فضلّوا وأضلّوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩﴾ [الملك: ٨ – ٩]، ولهذا أقرّ المشركون على أنفسهم لما عاينوا العذاب، واعترفوا بمجيء الرسل وصدق رسالتهم، ولكنهم كذّبوا واستكبروا وأعرضوا عن قبول الحق المبين، وهذا من أعظم أسباب الانحراف الفكري.

(١) ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، (ج٢٩/ص١٣).

وقد ذكر النبي ﷺ العقيدة بلفظ الإيمان في الحديث فقال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)(١). فهو تصديق قلبي جازم بجملة من الحقائق الواردة في الكتاب والسنة وهي من أصول الدين ومقومات الحضارة الفكرية لا يستقيمان بدونها.

وقد جاءت المسائل العقدية في غاية من الوضوح والبيان مع وسطية واعتدال ومن ذلك: إنها لم تكلّف العقل بالتفكير والبحث فيما لا طاقة له به في الغيبيات، ولم تهمله دون بيان، وإنما حصّنته من الوقوع في الأوهام والخرافات بأدلة يقينية تخبره عن الحقائق الغيبية، مع توجيه الفكر بضرورة الاستناد إلى الدليل الصحيح والحجة الواضحة في تقرير القضايا الإيمانية لقبولها والعمل بها، وقد تضمنت سورة الملك من الوضوح والبيان والوسطية في إثبات العقيدة بالشواهد العقلية والفطرية للتصديق الجازم بالحقائق الغيبية من توحيد الله، وتنزيهه في أسمائه وصفاته، وحقيقة الموت واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء، والإيمان بوجود الملائكة وصدق الرسل وإنزال الكتب، بإثبات الكمالات لله عزوجل، فإن السورة من أولها إلى آخرها تمجيد وتعظيم لله وذكر لدلائل ربوبيته وحده في الوجود المتضمنة إفراده بالعبادة، فابتدأت السورة بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك: ١] وختمت بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ۝٣٠﴾ [الملك: ٣٠].

كما أن العقيدة تمنح الفكر التوزان والاعتدال في مسألة توحيد الإله فلا إنكار يعارض القوى العقلية والفطرية والنفسية والكونية، ولا تعدد يخالف العقل والفطرة وشواهد الكون، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي: لفسد نظام الكون وهلك من فيه لتعدد الآلهة، وإرادة كل واحد في تسيير الكون على نظامه، ولهذا جاء التأكيد على قضية إفراد الله في أفعاله من الخلق والإحكام الكوني وانتظامه في سورة الملك تنزيها لله عن أن يكون له شريك في ملكوته واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، ومن ذلك قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [الملك: ٢-٣] قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ [الملك: ١٥] قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ [الملك: ٢٣] قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ [الملك: ٢٤].

وفي آخر السورة جاء الربط بين مسألة الإيمان بالله على لسان الرسول محمد ﷺ، وأعظم مقامات الدين وهو التوكل على الله، فالإيمان تصديق القلب الجازم، وما يستلزم من إتباعه بالقول والعمل الباطن والظاهر، فيمنح الفكر قوة اعتقاد ويقين، مع قوة عمل واستعانة بالله في استقامته وصلاحه واستخلافه في الأرض، وهو من صور الاعتدال بين الأخذ بالسبب والاعتماد على المسبب، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والإحسان، (ح رقم٨)، (ج١/ص٥٥).

إن بناء الفكر على معتقد صحيح وواضح مع وفرة الحجج وتنوع في الأدلة؛ مما يكسب الفكر قوة وازدهاراً ونماء في فضاء المعرفة، فالإيمان هو الوقود الذي يحرّك الفكر ويدفعه إلى التقدم على أصول ثابتة قيّمة، وبقدر صحة الإيمان وسلامة المعتقد يكتمل البناء الفكري وتشيد الحضارة المعرفية، ولهذا فإن الإسلام اعتنى بالقضايا العقدية والمسائل الفكرية العليا المتصلة بالنشأة والمعاد والكون والوجود والغاية ووضوح المنهج بالحجج والبراهين؛ لاستقامة الفكر وانطلاقته من قاعدة صحيحة يقينية، يقول الإمام ابن تيمية في وصف أثر الاعتقاد الصحيح على أولي الفكر: "ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال... وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوّي الإدراك ويصححه"(١).

إن العقيدة الإسلامية تحرر الفكر من القيود والأوهام، وتحميه من الضياع في ظلمات الجهل والشرك والهوى، فالإيمان بالله يحرر الفكر من المعوقات الذاتية كالهوى والشهوات، ومن المعوقات الخارجية كالتقليد الاجتماعي والاتباع على غير بيّنة، فتحجب عنه نور الهداية وتورده المهالك، كما أن الإيمان بالله يخلّص الفكر من الخرافات والأساطير التي تصرفه عن التفكير الموضوعي العلمي في الأدلة النقلية، والمعطيات الكونية، والشواهد العقلية الموصلة إلى الإيمان بالله وحده، وذلك لما تمتاز به العقيدة الصحيحة من تصور واضح لا غموض ولا تعقيد، ربانية المصدر توقيفية مما يكسبها قوة في الاستدلال وثباتًا في الأفكار والقيم، وموافقة للفطرة لا تعارضها ولا تناقضها، وسطية المبدأ والمعتقد فتصون الفكر من الميل والطغيان.

المبحث الثاني: مقومات فكرية معرفية

العلم النافع قوام الفكر الحضاري، وأي أمة تريد النهوض والتقدم لا بد أن تسلك دروب العلم وتنهل من مصادر المعرفة، والعلم من أسباب بقاء الأمة وامتداد حضارتها المعنوية والمادية، والإسلام حث على العلم النافع، وفضّل أهله بالرفعة والشرف والمكانة والثواب، فهم ورثة الأنبياء، ولهم أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الصديقية قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم الربّانيون الراسخون في العلم، فالإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه(٢). وقد احتفت سورة الملك بالعلم وأشارت إلى مصدرين أصليين للمعرفة، وما يعين على فهمهما من أدوات العلم والطلب؛ لإرشاد الفكر الإنساني إلى أهمية الوقوف على المصادر العلمية الصحيحة الشاملة، مع الانتفاع بأدوات الطلب المعينة على الفهم والإدراك للتميز بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد.

(١) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، (ج٤/ص١٠).

(٢) ينظر: ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، طريق الهجرتين وباب السعادتين، (ص٣٥١).

المطلب الأول: اتباع الوحي أصل المعرفة

إن الفكر بحاجة إلى أصل للمعرفة ثابت وصحيح، يستقي منه الأصول والكليات، ويجيب على تساؤلاته، ويلبي احتياجاته، والوحي مصدر معرفي أساسي، وضروري يقيني، ومبدأ اتصال عالم الغيب بالشهادة، وهو ما أنزل الله على رسوله من شرع وبيان، وحجج وبراهين؛ لتقويم الفكر والسلوك، وهداية الناس من الظلمات إلى النور، وقد تضمن من المعارف والعلوم التي بها سعادة الناس واستقرار المجتمعات ونهضتها، ومن ذلك:

- أصول الإيمان ومسائل العقيدة والغيب والشهادة، وبيانها تفصيلا، وتأصيلا بالحجج، والبراهين.
- التشريعات التعبدية، وتوضيح الحِكم، والكيفية، والأحكام التكليفية ترغيباً وترهيباً.
- النظم المالية وما يتعلق بمعاملات الخلق فيما بينهم لقوام معيشتهم واستمرار حياتهم.
- النظام الاجتماعي رعاية للوشائج والروابط وصلة القرابة بين الناس، ببيان الحقوق والواجبات.
- أصول التربية الشاملة للأخلاق والآداب والفضائل والمعروف، والنهي عن الرذائل والمنكرات جملة وتفصيلاً.
- النظم السياسية لبناء الأوطان ونهضتها، وسنّ القوانين والحقوق والواجبات، وتنظيم العلاقات الداخلية والخارجية.
- العلوم الطبيعية والسنن الكونية، ودلالتها العلمية على عظمة الخالق وإفراده بالعبادة.

والوحي جزء من العلم الإلهي فهو حق وصدق يمتنع أن يقع فيه الخطأ والتغيير والنقص، وحاجة الفكر للعلوم المكتسبة منه فوق كل حاجة وضرورة، والعقل البشري محدود قاصر متباين يعلم ويعمل في حدود مشاهدته وإدراكه، مفتقر للوحي الذي يخبره عما يعجز الفكر عن الوصول إليه بدونه، كالإخبار بالغيبيات وأصول الإيمان وعبادة الله، لقد أدرك الإنسان بالوحي ماهيته ووجوده، وغاية خلقه ومعاده، وتكريم الله له بين سائر المخلوقات، وكشف له عن السنن الكونية والإلهية، وعلّمه ميزان الحق والباطل، والصالح والفاسد، والنافع والضار من الأفكار والأفعال والأقوال، وهو علم لا يصادم الفطرة ولا يخالف العقل، وهو الطريق المعصوم للمعرفة من عالم الغيب متوجه إلى عالم الشهادة، فعلّم الإنسان ما يلزمه في عالم الشهادة، وما يلزمه من تفاصيل في عالم الغيب، غايته أن يرد الإنسان في الأرض إلى عبودية الله في العلم والعمل، وهي علوم ربانية المصدر شاملة ومتكاملة، ثابتة ومتوازنة، لا تلغي الفكر الإنساني، بل تعطيه قيمة في إثباته وتؤكد له مجالاته في عالم الشهادة[1].

(١) ينظر: كردي، راجح عبدالحميد، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، (ص٧٧٧-٧٨٢).

ولما كان أصل العلم الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة، كان ذكره لطريق الهداية بالرسالة وحصولها، والفلاح للمؤمنين دون غيرهم، وذمّ الكفار والمنافقين كثير جدا في القرآن الكريم(١) كما ورد في سورة الملك عاقبة تكذيب الرسل وإنكار الوحي والإعراض عنه قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩﴾ [الملك: ٨ – ٩] فكل من يرفض الوحي فهو في ضلال حالاً وعاقبة، فكراً وسلوكاً، ولا مخرج له من الحيرة والضلال إلا باتباع الوحي، فإن أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية: فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله، علمًا ومعرفة وعملا، والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم في الإيمان بما منّ الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول(٢)، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك: ١٢]، ولهذا فإن الإقرار بالرسالة والنبوة وتصديقها، والعمل بمقتضاها شطر شهادة التوحيد وركن من أركان الإيمان.

وثمرة اتباع ما أنزل الله تزكية النفس، وطمأنينة الروح، واستقامة الفكر واعتداله وتحريره من قيود الأهواء والأوهام والجهل، ودفعه إلى ميادين العلم والحضارة وتحقيق السعادة، يقول ابن القيم رحمه الله: "لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يُثمِر اليقين الذي هو أعظم حياة القلب، وبه طمأنينته وقوّته ونشاطه وسائر لوازم الحياة لكفاه شرفا وفضلا"(٣).

وقد أشارت سورة الملك إلى بيان أثر اتباع الوحي في حصول الاستقامة الشاملة في الحياة والمعاد، حيث صوّر الله حالة رجلين مختلفين في سيرهما قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾ [الملك: ٢٢] وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه من تكذيب الوحي والإعراض عنه كمثل من يمشي مكبّا على وجهه منحنيا لا مستويا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى أمن يمشي منتصب القامة، متبع الوحي مهتدياً على صراط مستقيم واضح بيّن، فهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، وهذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة(٤)، فاستقامة الفكر واعتداله دلالة على الرقي الفكري، وهو ثمرة معرفة العلم الحق واتباعه، وأن تكون له مرجعية يقينية يتلقى منها زاده الديني جملة وتفصيلا، ويستنير بأصولها وقواعدها الكلية الشاملة لتسيير معاشه وقوام حياته، ونهضة مجتمعه، وعمران الأرض والانتفاع بها.

(١) ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، (ج٢/ص٤).

(٢) ينظر: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص٨٣٨).

(٣) ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، (ج١/ص٤٣٥).

(٤) ينظر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (ج٨/ص١٨١).

المطلب الثاني: الكون موضوع المعرفة

الكون مصدر من مصادر المعرفة، وما أودع الله فيه من خلق وسنن وأمم، دلالة على وجوده وربوبيته، كما يتجلى في بديع الكون كمال صفاته وأسمائه، والكون عالم حسي شاهد على العالم الغيبي دالٌ عليه، من نشأة ومعاد وتوحيد بطريق الاستدلال العقلي، وهو مصدر معرفي تجريبي لا تنتهي معارفه، ولا تتوقف دلائله وعجائبه، سخّره الله للإنسان لتمكينه من الاستخلاف على الأرض والانتفاع بأسراره وشواهده، وبناء الحضارة المعنوية والمادية، وقد تضمنت سورة الملك جملة من الوظائف الكونية الكبرى وهي موضوع المعرفة لا تتحقق إلا بالعلم، وعلم الكون من الموضوعات الرئيسة التي تناولها الوحي، والكون خاضع لسلطان العقل قابل لأن يعرف، بل إنه يجود في كثير من الأحيان بإظهار أسراره والكشف عن قوانينه، وعلى الإنسان أن يلاحظ ويتأمل، ويربط بين الظواهر وأسبابها ليتعرف على العلاقات الكامنة بين ظواهر الكون، تتجسد الغاية والمقاصد من خلقه، وتنتفي عنه المصادفة والعبثية، ومن مقاصده ووظائفه الكبرى[1]:

- التعامل مع المعرفة الكونية باعتبار أن الكون كله آية وبرهان عملي واقعي له خالق لا شريك له في الملك والعبودية، وقد تنوعت هذه المعرفة في سورة الملك بين الإخبار بعظيم خلقه وبديع صنعه وإحكامه وجماله كقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك: ٣] قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك:٥]، أو الاستفهام التقريري لإثبات عظيم إحسانه في خلق الطير وتسويته قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ [الملك: ١٩]، كما ورد في السورة استفهام الإنكار والتخويف، والتهديد بظواهر كونية لمن استمر في عصيانه الله كاضطراب الأرض من تحتهم قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦].
- ما يبصره الإنسان في هذا الكون من مظاهر المعرفة والإحكام والقدرة الإلهية، يدرك أنها مستمدة من صفات صانعها، وكلما ازداد الفكر قراءة في الكون ازداد علماً وفقهاً وقربا من صانعه، واستجلاء هذه الآثار هي من مهام العقل كالتأمل والتدبر والنظر والإدراك، ولذلك جاء الأمر صريحا في السورة قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك: ٣].
- مادام هذا الكون له خالق، فهو مرآة تتجلّى في مظاهره عظيم قدرته وملكه وتدبيره، فهو دليل عملي عقلي محسوس لا يمكن إنكاره، شاهد على النشأة الآخرة ودال على الغيب قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الملك: ٢٤]

(١) ينظر: الجليند، محمد السيد، الوحي والإنسان قراءة معرفية، (ص١٥٤-١٥٥)

- الكون بكل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان قابل لفعله، وتحقيق مصالحه، والانتفاع به، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥] وهذا التسخير لن يتم إلا إذا استطاع الإنسان أن يعمل عقله في آيات الكون من سمائه إلى أرضه كاشفا عن قوانينه، باحثا في ظواهره بقصد الوصول إلى معرفة العلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر وجودا وعدما، وهذا كله هو مفتاح الطريق إلى معرفة آثار الله في كونه ومعرفة صفاته، وصولاً إلى توحيد الله أولاً، ثم الانطلاق في ميادين العلوم المختلفة كعلم الفيزياء والأحياء والكيمياء والجغرافيا والأفلاك والطب وغيرها من العلوم(١).

لقد خلق الله الإنسان لم يكن له علم بشيء ثم أنعم عليه بالحواس وهي آلات الإدراك وأصول التفكير، وأدوات اكتساب المعارف والعلوم، وميّزه وكرّمه بالعقل فهو القوّة المتهيّئة لقبول العلم، "فإن العقل لكل فضيلة أس، ولكل أدب ينبوع، وهو الذي جعله الله للدين أصلا وللدنيا عمادا، فأوجب الله التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه"(٢) والقلب: الفؤاد وقد يعبّر به عن العقل، وورد القلب في القرآن على معان منها: العقل، وكذا الرأي والتدبير(٣)، وعلى ذلك فهو "في اللغة وفي القرآن الكريم قوة مدركة في الإنسان تميزه عن سواه من الكائنات، وتجعله مسؤولاً عن أعماله على أساس قدرته العقلية على الإدراك والتمييز بين الحق والباطل والخير والشر والحسن والقبيح"(٤)، وقد تميز القرآن بالجمع بين حاستي السمع والبصر وإظهار أهميتهما المعرفية، والتأكيد على دورهما في الإدراك وتحصيل العلم، وعملهما مع العقل والفؤاد(٥)، من تذكّر وتدبر، وتفكّر وتعقل، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وإنما خص القلب والسمع بذلك، لأن الأدلة السمعية لا تستفاد إلا من جهة السمع لاستكمال العقل بالمعارف، والأدلة العقلية لا تستفاد إلا من جانب القلب، ومعلوم أن العقل في القلب والسمع منفذ إليه(٦). قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣] والسمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب، وخص هذه الثلاثة بإلزام الحجة منها، واستدعاء الشكر عليها(٧)، والسورة تؤكد وتحث على أهمية استعمال السمع والبصر والانتفاع بهما في تحصيل العلم والمعارف واستنباط الدلالات العلمية والعقلية والحسية، وحسن

(١) ينظر: الجليند، محمد السيد، الوحي والإنسان قراءة معرفية، (ص١٧٨/١٨٣)

(٢) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن، (ج٥/ص٢٦١).

(٣) ينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (ج٤/ص٨٥/٢٨٩).

(٤) الدغشي، أحمد محمد حسين، نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية، (ص٢٣٨).

(٥) ينظر: كردي، راجح عبد الحميد، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، (ص٥٥١-٥٥٢).

(٦) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (ج١-٢٤/ص٢٩٤-٢٩٥/٥٣٠).

(٧) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (ج٢٤/ص٥٣٠).

إعمالهما مع العقل لحصول التفكّر والتدبّر وصولا إلى نتائج علمية صحيحة قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك: ٣] والمراد بالبصر في حقيقته المصحوب بالتفكر والاعتبار بدلالة الموجودات على موجدها، والتأكيد والحث على التبصّر والتأمل، وهو أمر بالنظر لتحصيل العلم(١)، ولما ذكر الله مكانة العقل والحواس التي بها تحصيل المنافع ودفع الأضرار؛ نبّه الناس إلى لطف يشاهدونه بأبصارهم(٢) فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ [الملك: ١٩] قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ [الملك: ٢٨] "وكما أن البصر اسم للإدراك التام الكامل الحاصل بالعين التي في الرأس، فالبصيرة اسم للإدراك التام الحاصل في القلب...أي له من نفسه معرفة تامة"(٣)، إن عناية القرآن بالمنهج التجريبي تؤكد على أهميته للوصول إلى المعارف المختلفة التي تُسهم في التقدم الفكري والتطور المدني، من خلال عرض المظاهر الكونية وسننها، وإثارة العمليات الفكرية للإدراك والاكتشاف والإبداع. ولما كان الاعتدال مطلباً ضرورياً لاستقامة الفكر ورقيه الحضاري؛ فإن السورة راعت التناسب بين المعرفة وقدرات العمل العقلي، فأشارت إلى ميدانه الرحب من النظر في الآفاق، والأنفس، وتقرير العقيدة بالأدلة العقلية، والاعتبار بأحوال الأمم السابقة، وهو ما أمر الشرع فيه بإعماله للوصول إلى العلم النافع والعمل الصالح، وإقامة حضارة ممتدة، ثم ورد النهي عن العمل العقلي والبحث فيما لا فائدة من ورائه، وخارج عن قدرة العقل وميدانه العملي، مما استأثر الله بعلمه من الغيب، فأمره بالتسليم فيما لا طاقة له به كعلم وقوع الساعة قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦﴾ [الملك: ٢٥ – ٢٦] فإن الساعة واقعة بدلالاتها وعلاماتها وأدلتها السمعية والعقلية، ولا ملازمة بين صدق الخبر والإخبار بوقت وقوعه، فإن الصدق يعرف بأدلته(٤).

المبحث الثالث: مقومات فكرية أخلاقية

من سمات الفكر الإسلامي انضباطه بقيم أخلاقية إسلامية عالمية إنسانية، ترقى به في سلم الحضارة، وتتجلى هذه القيم في مناهج التفكير، والإنتاج العلمي، وعرض القضايا الفكرية ونقدها وتمحصيها، وهي معيار فكري وميزان للقبول والرفض، وتمييز الحسن والقبيح من الأفكار والمعتقدات، بمثابة الأصول التي توجّه الفكر، وتنعكس على السلوك، وقد تضمنت سورة الملك القيم الأخلاقية التي تسمو بالفكر وتمنحه صفات قيّمة راسخة مستمدة من أصول ربانية، وهذه القيم الأخلاقية بمثابة قاعدة كلية تنبثق عنها الأخلاق الفرعية.

(١) ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، (ج٢٩/ص١٩).

(٢) ينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، (ج١٤/ص٢٣٤).

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب، (ج١٣/ص١٠٤).

(٤) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص٨٣٩).

المطلب الأول: قيمة الحق وإقامة العبودية

التزام الحق بأدلته، وإرادة التعبد لله في كل الأحوال، من القيم الأخلاقية العليا الكلية الكبرى، التي ترفع من شأن الفكر الإنساني، وتميزه عن سائر المخلوقات، وتنبثق عن هذه القيمة الأخلاقية كل القيم، وهي بمثابة ضابط لاستقامة الفكر ورقيه، فإن الله عزوجل حق في ذاته وصفاته، وكلامه وأفعاله، فقوله وفعله حق، ولقاؤه حق، والنبيون حق، وكتابه حق، وشرعه حق، ووعده ووعيده حق، وقد ابتدأت السورة بإثبات الحق في وجود الله وربوبيته وألوهيته وكماله في أسمائه وصفاته، ثم تلتها الدلائل البينة والحجج العقلية والمشاهدة التي تقرر عقيدة التوحيد، وتوجّه الفكر إلى ضرورة التأمل والتدبر في دلالة الأدلة الواضحة واتباع الحق بالبرهان، والتخلي عن الهوى والكبر والتقليد الأعمى قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾ [الملك: ٣ – ٤] إن اعتبار قيمة التزام الحق في المنهج الفكري يعدّ ضابطًا أوليًا أخلاقيًا وعلميًا في قبول الحق بالبرهان المبين، وما يتفرع عن هذه القيمة من قيم الصدق والأمانة والتثبت في النقل ومناقشة الأفكار وتحقيق النصوص وعرض الأدلة والقضايا الفكرية بموضوعية تامة، والتخلي عن الرأي المجرد والموروثات الباطلة التي لا تستند إلى دليل نقلي أو عقلي صحيح، وقد أكّد أهل العلم هذا القيمة الأخلاقية بقولهم: "إذا كنت ناقلاً فالصحة، وإذا كنت مدعياً فالدليل"(١)، إن قيمة التزام الحق تحرك الفكر نحو البحث والنظر والسؤال والاكتشاف، وتتجلّى له البينات، كما يورث الفكر تواضعاً وبصيرة، والإعراض عن قبول الحق، واعتبار مسالك الهوى معياراً في المنهج الفكري يورث صاحبه الكبر وعدم التمييز بين الحق والباطل، إن من أسباب الانحراف الفكري تكذيب الحق والاستكبار عن قبوله واتباع الهوى والإعراض عن الحجج الصريحة، ولذلك ذكرت الآيات بعد تقرير الحق بأدلته، عاقبة المكذبين السخط والعذاب الأليم قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦﴾ [الملك: ٦]، وفي المقابل من آثر الحق واستحضر شرف منزلته استحق الرضوان والثواب العظيم قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢﴾ [الملك: ١٢].

وطلب منزلة العبودية لله مما يعين على التزام الحق ومحبته، ومجانبة الباطل وبغضه، فالغاية من الخلق والوجود وإرسال الرسل وإنزال الكتب هي عبادة الله الحق وحده لا شريك له، "والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"(٢) وعلى ذلك فهي قيمة عليا أولية، وغاية كبرى، تزكي النفس، وتضبط الفكر، وتوجّه السلوك لتحقيق الخير والنفع ودرء الشر والفساد، ولما كانت

(١) صابر، حلمي عبد المنعم، منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، (ص١٦).

(٢) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، (ج١٠/ص١٤٩).

العبودية هي الغاية الكبرى فإن كل ما أمر به الشرع وحث عليه من التعبّد لله، ومن صور العبودية الرقي في مدارج الكمال وسلّم الحضارة بمنهج قويم يحبه الله على هدى وبصيرة، و"كلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم"(١)، وسورة الملك كاملة تعريف الخلق بالله ﷻ والعلم بعظمته في الخلق والإيجاد والإحسان والتسوية، والتذكير بنعمه وآلائه لتحقيق العبودية، التي تتفرع عنها جملة من القيم كالتوكل عليه والاستعانة به والخوف منه ورجاء ما عنده، ولا تتحقق العبودية إلا بالعلم الحق النافع وهو قوام الفكر وعماد الحضارة، وقد أشاد القرآن بأهل العلم وميزهم عن غيرهم، برفعة مقامهم، وعظيم نفعهم، والسورة تؤكد على ضرورة التفاعل الإيجابي بين الحواس والعقل بالتدبر والتفكّر للوصول إلى المعرفة الصحيحة تعبدا لله، ووردت الألفاظ الصريحة للعمليات العقلية في السورة قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: ٤] قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ [الملك: ١٠] قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ [الملك: ١٩] قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣]، إن الحضارة الفكرية تقوم على توظيف المعرفة الصحيحة والنتاج الفكري لخدمة الإسلام والمسلمين بما يحقق المنافع ويدرأ المفاسد، وفق غاية العبودية التي تعد ضابطاً للفكر، تمنحه منهجية واعية لها أهداف تنموية وإصلاحية في عرض القضايا الفكرية، ومناقشتها، وإثباتها بالحجج والبراهين إخلاصاً لله، لا سيما وأن العبودية لله تحرر الفكر من عبودية الأهواء وقيود الشهوات التي تخلّف الجهل والضلال والانحراف الفكري.

المطلب الثاني: قيمة العدل وتحقيق الأمن

العدل من القيم العالمية الكبرى، وقيمة إنسانية عليا، به قامت السماوات والأرض، وخلق الله الخلق، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لإقامة العدل، وهو الاستقامة، والحكم بالحق، وعدم الجور والميل، والتسوية، ويشتق منه الاعتدال والتوسط(٢)، وأمر الله بالعدل وجوبًا، ونهى عن ضده الظلم تحريمًا، فإن "جماع الحسنات العدل وجماع السيئات الظلم وهذا أصل جامع عظيم"(٣)، والشريعة مبناها على الحِكم ومصالح العباد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى البعث؛ فليست من الشريعة(٤)، ومن مظاهر كمال عدل الله في سورة الملك، أنه ﷻ خلق الخلق لأجل عبوديته، فأقام بعدله

(١) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، (ج١٠/ص١٧٦).

(٢) ينظر: ابن منظور، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، لسان العرب، (ج١٠/ص٦١-٦٢).

(٣) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، (ج١/ص٨٦).

(٤) ينظر: ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين، إعلام الموقعين عن رب العالمين، (ج٢/ص١١).

الحجة عليهم، وأرسل الرسل وأنزل الكتب فلا عذر لهم يوم القيامة قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨ – ٩]، يقول ابن كثير رحمه الله: "يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه"(١)، ومن كمال عدل الله تكريم الإنسان والإنعام عليه بأدوات الطلب والفهم والإدراك والإرادة؛ ليميز بين الحق والباطل بالبرهان المبين قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣]، ونصب يوم الحساب لمجازاة الخلائق بعدله ورحمته فلا تظلم نفس شيئا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الملك: ٢٤]، والعدل هو قوام الدين والدنيا، ومن أسباب النهضة والإصلاح، ومن عدل الله تسخير الكون للإنسان لتمكينه من العمل والسعي وتحقيق العمران، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، كل ذلك دلالة على كمال عدله ولطفه، إن العدالة قيمة عليا شاملة لجوانب الحياة، وقاعدة لكل الأنظمة الإسلامية، وهي موجبة لأداء الحقوق والواجبات، تصون الفكر من التعصّب للهوى أو التحيّز لاعتبارات فاسدة لا برهان عليها، إن الحياة لا تستقيم إلا بالعدل، وهو مطلب إنساني فكري وسلوكي، والحضارة الفكرية تقوم على العدل والاستقامة في طلب المعارف والعلوم وبذلها، وعدم التطرف والعدول عن الوسط في نتائجها الفكرية ودلالاتها المعرفية ومسائلها العلمية، فمن يتصف بالعدل فهو يعمل في إطار منهج قويم له ضوابطه وغاياته وأهدافه، والعدل ضرورة فكرية حضارية، تُكسب الفكر مجموعة من الضوابط، ومنها: تلقي المعرفة من مصادرها الصحيحة، فلا يقبل الأفكار إلا بأدلتها البينة، والعدل مع المخالف فلا يطغى عليه، بل يُحسن التعامل معه، ويُظهر الحق ويدافع عنه بعيداً عن التعصب الباطل، كما أن قيمة العدل تساهم في الرقي الحضاري حيث تجعل الفكر قابلاً للانفتاح على متغيرات العصر، ومعالجة القضايا الإنسانية بما هو نافع، وموافق للرؤية الإسلامية، وقيمة العدل والاعتدال الفكري كفيلة بالتصدي للفكر الطائفي، ومحاربة التطرف، والقضاء على جذور العنصرية، وإقامة العدل هو في حقيقته تحقيق للأمن الفكري واستقامته واعتدال أحواله، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾ [الملك: ٢٢] والسورة من أولها إلى آخرها دعوة للأمن وحماية للمجتمع من الانحراف الفكري، من خلال تثبيت العقيدة الصحيحة وترسيخها في الأنفس بالدلائل والبراهين، وعرض المشاهد الكونية، والقدرة الإلهية، وضرب الأمثال، وذكر انقسام الخلق يوم المعاد، كما أكّدت الآيات على ضلال المعتقدات الباطلة وإثبات ضعفها بالشواهد العقلية، وهذا السبيل من أنفع الطرق وآكدها لتحقيق الأمن الفكري، فالعقيدة هي الدافع لكل

(١) ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (ج٨/ص١٧٨).

عمل وقول ولا ينفك عنها الإنسان بحال من الأحوال، لذا فإن فالعناية بالعقيدة وغرسها هي الوسيلة الأولى لضبط الفكر، وإرساء دعائم الحضارة والاستقرار، وإصلاح المجتمع وحمايته من الزيغ والتطرف والإفساد، والله ﷻ يتوعد ويهدد من يستمر في عصيانه بتغيير حاله من الأمن والنجاة والاستقرار إلى الهلاك وفساد الحال والاضطراب قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦] ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ [الملك: ١٧]. كما أن السورة تدعو إلى العلم النافع باتباع الوحي وإعمال الفكر وتنميته في ميادينه الواسعة، فالعلم ضمانة حقيقية من الميل والضلال، كما أن الجهل والإعراض عن الحق سبب للزيغ والانحراف والحيرة والاضطراب.

إن التزام خلق العدل وتحقيق الأمن فريضة شرعية وضرورة فكرية حضارية، لا تنهض المجتمعات إلا بتوافرها، فالحضارة تبدأ إذا انتفى الخوف والاضطراب والغلو، واطمأن الناس على حياتهم، وأمنوا على حقوقهم، انطلق الفكر في ميادين الإبداع والإحسان، والبحث والاكتشاف، وزيادة الإنتاج الفكري والمادي.

المطلب الثالث: قيمة العمل بالعلم

العلم مقترن بالعمل، فعمل بلا علم جهل وضلال، وعلم بلا عمل خسران وهلاك، ولا تنهض الحضارات إلا على علم وعمل، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، ولا يعد عالما من لم يكن بعلمه عاملا، فلا تأنس بالعمل مادمت مستوحشا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصرا في العمل ولكن اجمع بينهما، والعلم يراد للعمل كما العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرا عن العلم، كان العلم كلاًّ على العالم[1]، والمنهج القرآني يقرن بين العلم النافع والعمل الصالح، فلا خير في علم لا يتبعه عمل، "وليس العلم بمجرد صورته هو النافع، بل معناه: وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به"[2]، والعلم يرتكز على منهجية واعية تبدأ من العمليات الفكرية بالتفاعل الإيجابي بين الحواس والعقل، واستثمار قدراته بالتفكّر والتدبر والاعتبار والإدراك والتحليل والاستنباط والتوجيه والنقد والتمحيص المورث للعلم النافع، الذي تظهر آثاره وتتضح معالمه في الحضارة الفكرية والمادية، وهنا تبرز قيمة العمل الفكري أولاً، وقد تعددت ميادينه في سورة الملك بما يحقق النفع والإعمار والإصلاح في أمور الدين والدنيا ومنها: التأمل في ميدان الآفاق قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: ٣-٤]، التفكّر في خلق النفس وما أنعم عليها قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣]،

(١) ينظر: الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، اقتضاء العلم العمل، (ص١٤-١٥).

(٢) الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، صيد الخاطر، (ص١٧٢).

التعقّل والتدبر في تقرير القضـــايا العقدية بالحجج والبراهين قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الملك: ٢٠]، الاعتبار بأحوال الأمم والســـنن الإلهية قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: ١٨]، تدبّر الأمثال للإدراك والتمييز بين الحق والباطل قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]، وفي مجال النقد والربط بين النتائج والأســـباب قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، حيث وقع الذمّ عليهم بسبب تعطيل العمليات الفكرية وفق المنهج الصـــحيح القائم على الحجج والأدلة والمعطيات الواضـــحة، فلم ينفعهم ما بلغهم من العلم، فهم والجهل سواء؛ لأنهم عطّلوا عمليات الإدراك التي تقودهم للعمل الصالح، إن "خير العلم ما نفع وإنما ينفع الله بالعلم من علمه ثم عمل به، ولا ينفع به من علمه ثم تركه"(١)، وقيمة الفكر في حسن إعماله على بصيرة، فإن استقام عمل الفكر صحّ عمل الجوارح، ولذلك قال الله في أول السورة: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وهو منهج قرآني متوازن بين عمل الفكر وعمل الجوارح، فإن المولى أمر بإعمال الفكر والانتفاع بأدوات المعرفة، كما أمر بالسعي وطلب الرزق والمشي وإعمار الأرض؛ لاستقامة الحياة، وتحقيق السعادة والرخاء، والتطور والتنمية الحضارية قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، والبناء الحضـاري لا ينهض إلا نتاج فكر صـحيح يؤثر ويوجّه ويضـبط الحضـارة المادية، فالعمل الفكري وحده لا يشـكّل حضـارة شـاملة حيث يبقى الإنتاج الفكري حبيس الأوراق، وعملا بلا فكر لا تُبنى به حضـــارة؛ لافتقاده العلم والتوجيه والضـــبط، فهي إلى الزوال أقرب.

إن إعمار الأرض فكرياً ومادياً بالمنافع والمصالح استجابة لأمر الله ﷻ، والإنتاج الفكري والمادي مقترن بالمسؤولية، فكل عامل مسؤول عن عمله، محاسب ومجازى عليه، مما يدفعه إلى الالتزام بالقيم الأخلاقية في عمله الفكري والسـلوكي كالصـدق والأمانة والإتقان والنزاهة والإحسـان ومراقبة الله، وغيرها من القيم التي تمكنه من تحقيق دوره الإيجابي على أكمل وجه، والرقي في مدارج الحضـارة والإبداع، وقد اشـتملت السـورة على بيان الجزاء الأخروي المترتب على صحة المعتقد أو فساده، وما يتبعه من عمل، وهو مشعر بمسؤولية العامل عن عمل فكره وجوارحه قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾ [الملك: ٦].

(١) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، اقتضاء العلم العمل، (ص٣٤).

الخاتمة:

الحمد الله الذي على يسّر وأعان، والشكر له على عظيم الفضل والإحسان، بإتمام دراسة مقومات الحضارة الفكرية في سورة الملك، وقد خلصت إلى جملة من **النتائج، من أهمها:**

١- اشتملت سورة الملك على أصول المقومات الفكرية الحضارية.

٢- عناية القرآن بالفكر فهو المرحلة الأولى في سلم الحضارة العالمية، فلا حضارة بلا فكر قويم.

٣- أهمية الاعتقاد الصحيح في تكوين الفكر السليم، وبناء قاعدة حضارية قوية وممتدة.

٤- العقيدة الإسلامية تمنح الفكر الاعتدال والثبات على الحق، ومواجهة الشبهات الضالة بالأدلة والبراهين.

٥- التصورات الكلية الصحيحة عن الوجود والإله والحياة والممات والمعاد، قضية فكرية أولية لا ينهض الفكر ويستقر بدونها.

٦- حاجة الفكر إلى الوحي -التشريع الرباني- باعتباره مصدرًا معرفيًا يقينيًا يضبط اتجاهه، ويصحح مساره، وينير طريقه نحو الرقي والكمال الإنساني.

٧- عرض الآيات الكونية، والطبيعة المشاهدة منهجية علمية لإثارة العمليات الفكرية في تقرير القضايا العقدية، ومصدر معرفي للتزود العلمي في سائر العلوم بالبحث والاكتشاف والتجريب، والانتفاع بها في تسيير الحياة وتطورها.

٨- ضرورة التفاعل الإيجابي بين الحواس والعقل للانتفاع بالعلم والعمل به في تحقيق الرقي الفكري والمادي.

٩- القيم الأخلاقية ضرورة فكرية وقواعد مثلى في ضبط الفكر وتوجيهه.

١٠- الالتزام بقيم الحق والعدل والعمل إقامة للعبودية، وتحقيق للأمن الفكري، ونشر السلام المجتمعي، ودليل الرقي في سلم الحضارة.

أهم التوصيات:

١-قيام دراسات بحثية عن المنهج القرآني في تقويم الفكر.

٢-تفعيل الدراسات الفكرية في المراكز والمؤسسات الاجتماعية لنشر الوعي الفكري ومقوماته.

٣-تطبيق المناهج العلمية الفكرية في المؤسسات التعليمية.

وصلى الله على نبيّنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وسلم

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم (جل منزله وعلا).

ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١/١٤١١هـ-١٩٩١م.

ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، طريق الهجرتين وباب السعادتين، القاهرة-مصر، دار السلفية، ط٢/١٣٩٤هـ.

ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، ط١/١٤٣٢هـ.

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، صيدا-بيروت، المكتبة العصرية، ط بدون رقم/١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية، ط بدون رقم/١٩٨٤م.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد السلامة، الرياض، دار طيبة، ط٢/١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي السندي، وبحاشية تعليقات مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للإمام البوصيري، وضع الفهارس العامة: خليل مأمون شيحا، بيروت-لبنان، دار المعرفة، ط٥/١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط٣/١٤١٤هـ.

أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، كتاب السنن سنن أبي داود، تحقيق: محمد عوامة، المدينة المنورة، دار اليسر، ط٣/١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، الرياض، مكتبة المعارف، ط١/١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الكبير، ت: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢/١٩٩٨م.

الجليند، محمد السيد، الوحي والإنسان قراءة معرفية، القاهرة، دار قباء، ط بدون رقم وتاريخ.

الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، صيد الخاطر، دمشق، دار القلم، ط١/١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، اقتضاء العلم العمل، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٤/١٣٩٧هـ.

الدغشي، أحمد محمد حسين، نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية، دمشق، دار الفكر، ط١/٢٠٠٢م.

الرازي، محمد بن عمر فخر الدين، مفاتيح الغيب، بيروت، دار إحياء التراث، ط٣/١٤٢٠هـ.

السايح، أحمد عبد الرحيم، الحضارة الإسلامية، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، السنة١٠/العدد٣- ذوالحجة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، بيروت-لبنان، دار ابن حزم، ط١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق وتخريج: شعيب الأرنؤوط، بيروت-لبنان، مؤسسة الرسالة، ط١/١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

صابر، حلمي عبد المنعم، منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي.

عارف، نصر محمد، الحضارة- الثقافة- المدنية دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، عمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢/١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

عبيدات، عبد الكريم توقان، الدلالة العقلية في القرآن الكريم ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، الأردن، دار النفائس، ط١/١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

الفيروزآبادي، مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط بدون رقم/١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢/١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

كردي، راجح عبد الحميد، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، الرياض، مكتبة المؤيد، ط١/١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

اللوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١/١٤١٥هـ.

مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٤/١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

مختار، أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، القاهرة، عالم الكتب، ط١/١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

النسائي، أحمد بن شعيب علي الخرساني، السنن الكبرى، تحقيق: حسن عبد المنعم، إشراف: شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١/١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

وِل ديورانت، ويليام جيمس، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، بيروت، دار الجيل، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.